﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨﴾

[البقرة: 108]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا ذكرتِ الآياتُ السَّابقةُ النَّسخَ، وأنَّه بأمرِ اللّهِ تعالَى، كمَا أنَّ ملكَه ومخلوقاتِه هي بأمرِه، شرعَ في إنكارِ فعلٍ ذميمٍ صَدَرَ عن أصحابِ موسَى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وهو سؤالُهم موسَى الكفرَ، وطلبُهم منه أن يتّخذَ لهم إلهًا من دون اللّه، وهذا القولُ وإنْ لمْ يصدُرْ عن المخاطبينَ، إلّا أنَّ ردعَهم وزجرَهم بعدَ ذكرِ النَّسخِ هو المناسبُ للمقامِ، منعًا من التَّأثرِ بأقوالِ الكفرةِ فيما قالوهُ في شأنِ النَّسخِ، فكانتِ الإشارةُ إلى أمرٍ أعظمَ من ذلكَ بكثيرٍ إشعارًا بخُطورةِ اتِّباعِ شبهاتِهم ومطاعنِهم؛ فإنَّها قد توصلُ إلى ما وصلَ إليهِ أولئكَ من استبدالِ الكفرِ بالإيمانِ؛ فوقعتْ هذهِ الآيةُ موقعَ التَّمثيلِ الاحترازيّ، وهو في غايةِ البلاغةِ في المحافظةِ على أبعادِ الخطابِ القرآنيّ في تقريرِ الأحكامِ النَّازلةِ.

قال الفخر الرّازي في المسألة الخامسة في بيان وجه المناسبة: "ذَكَرُوا في اتِّصالِ هَذِهِ الآيَةِ بِما قَبْلَها وُجُوهًا:

أحَدُها: أنَّهُ تَعالى لَمّا حَكَمَ بِجَوازِ النَّسْخِ في الشَّرائِعِ، فَلَعَلَّهم كانُوا يُطالِبُونَهُ بِتَفاصِيلِ ذَلِكَ الحُكْمِ فَمَنَعَهُمُ اللَّهُ تَعالى عَنْها، وبَيَّنَ أنَّهم لَيْسَ لَهم أنْ يَشْتَغِلُوا بِهَذِهِ الأسْئِلَةِ كَما أنَّهُ ما كانَ لِقَوْمِ مُوسى أنْ يَذْكُرُوا أسْئِلَتَهُمُ الفاسِدَةَ.

وثانِيها: لَمّا تَقَدَّمَ مِنَ الأوامِرِ والنَّواهِي، قالَ لَهم: إنْ لَمْ تَقْبَلُوا ما أمَرْتُكم بِهِ وتَمَرَّدْتُمْ عَنِ الطّاعَةِ، كُنْتُمْ كَمَن سَألَ مُوسى ما لَيْسَ لَهُ أنْ يَسْألَهُ؛ عَنْ أبِي مُسْلِمٍ.

وثالِثُها: لَمّا أمَرَ ونَهى، قالَ: أتَفْعَلُونَ ما أُمِرْتُمْ، أمْ تَفْعَلُونَ كَما فَعَلَ مَن قَبْلَكم مِن قَوْمِ مُوسى ؟"[1].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/255.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تُرِيدُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ، مِن أرادَ يريدَ إرادةً، وأصلُه من رَوَدَ، وهو على ذلكَ جذرُه اللغويّ، وأصلُ معناهُ "تقدّمٌ أو نتوءٌ واتجاهٌ إلى غايةٍ أو حدٍّ معيّنٍ"[1]، "ومن ذلكَ المعنى الإرادةُ: المشيئةُ؛ وهي ذهابُ النفسِ إلى الشيءِ طلبًا ورغبةً قويةً في تحصيلِه، ومنه: أرادَ الشيءَ: أحبّه وعُنِي بهِ"[2].

"والإِرَادَةُ منقولةٌ من رَادَ يَرُودُ: إذا سعَى في طلبِ شيءٍ، والإِرَادَةُ في الأصلِ: قوّةٌ مركّبةٌ من شهوةٍ وحاجةٍ وأملٍ"[3]، والمعنى في الآيةِ رغبتُهم في سؤالِ الرسولِ ﷺ.

2) ﴿تَسْـَٔلُواْ﴾: فعلٌ مضارعٌ من الأفعالِ الخمسةِ حذفتِ النونُ منه للجزمِ، أصلُه (تسألونَ)، الماضي المجردُ منه (سألَ) وهو جذرُه اللغويّ، والأصلُ في معناهُ "استخراجُ ما في حوزةٍ أخرَى؛ أي طَلَبُ تحصيلِه بَدفْعٍ أو حثٍّ: كما تخرجُ الصدقةُ والدرهمُ من المسؤولِ"[4].

والسؤالُ "استدعاءُ معرفةٍ، أو ما يؤدّي إلى المعرفةِ، واستدعاءُ مالٍ، أو ما يؤدّي إلى المالِ، فاستدعاءُ المعرفةِ جوابُه على اللّسانِ ... واستدعاءُ المالِ جوابُه على اليدِ"[5].

وله غيرُ نوعٍ في المتعدّي، "والسُّؤَالُ إذا كانَ للتّعريفِ تعدّى إلى المفعولِ الثاني تارةً بنفسِه، وتارةً بالجارّ، تقولُ: سألتُه كذا، وسألتُه عن كذا، وبكذا، وبـ: (عن) أكثرَ"[6].

والفعلُ ههنا متعدٍّ بحرفِ الجرِّ، والمرادُ هنا الاستخبارُ؛ أي طلبُ معرفةِ الخبرِ في أمرٍ ما.

3) ﴿رَسُولَكُمْ﴾ اسمٌ على وزنِ (فَعُول)، من الجذرِ اللغويّ (رسل) فعلٌ ماضٍ، المجرَّدُ منه (أرسلَ)، والجذرُ اللغويّ له (رسل)، وأصلُ المعنى "يدلُّ على الانبعاثِ والامتدادِ، فـ: (الرَّسلُ) السيرُ السهلُ"[7]، و"يُقالُ ناقةٌ رَسْلَةٌ، سهلةُ السّيرِ، وإبلٌ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رود).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رود).
(3) الراغب، المفردات: (رود).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سأل).
(5) الراغب، المفردات: (سأل).
(6) الراغب، المفردات: (سأل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة (رسل).

مَرَاسِيلُ، مُنبعثةٌ انبعاثًا سهْلًا، وأرسلناكَ: بمعنَى جعلناكَ رسولاً من عندِنا للناسِ، أي: أنتَ الرَّسولُ المُنبعثُ"[1]، فالرّسولُ هو المبعوثُ من اللّهِ تعالى إلى خلقِه.

4) ﴿قَبْلُ﴾: اسمٌ من الأسماءِ الملازمةِ للإضافةِ، جذرُه اللغويّ (قبل) وهو صالحٌ للظرفيةِ الزمانيةِ والمكانيةِ، و"القافُ والباءُ واللَّامُ أصلٌ واحدٌ صحيحٌ تدلُّ كلمهُ كلُّها على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ"[2]، وله معانٍ كثيرةٌ جدًا تنتمِي لهذا الأصلِ، أمّا قبلَ المذكورِ في الآيةِ ففيه إشارةٌ إلى التقدّمِ الزمانيّ، وهو "يستعملُ في التّقدّمِ المتّصلِ والمنفصلِ، ويضادّه بعدَ"[3] وقد "حملَ اللفظُ معنَى الأوّليةِ والسَّبقِ؛ لأنّ ما هو قَبْلَ الشيءِ سابقٌ له ومتقدّمٌ عليه"[4].

5) ﴿يَتَبَدَّلِ﴾: فعلٌ مضارعٌ على وزنِ (يتفعّلُ)، الماضِي منه (تَفَعّلَ) مزيدٌ بالتاءِ والتضعيفِ، وهو فعلٌ ثلاثيّ مزيدٌ، جذرُه اللغويّ (بدل) والأصلُ في معناه "قيامُ الشيءِ مقامَ الشيءِ الذاهبِ، يقالُ: هذا بدلُ الشيءِ وبديلُه، ويقولونَ: بدّلتُ الشيءَ: إذا غيّرتُه، وإنْ لمْ تأتِ له ببدلٍ"[5].

و"الإبدالُ والتَّبديلُ والتَّبَدُّلُ والاستبدالُ جعلُ شيءٍ مكانَ آخرَ ... والتبديلُ قد يقالُ للتغييرِ مطلقًا، وإنْ لمْ يأتِ ببدلِه[6]، والمعنى في الآيةِ: أنّهم يجعلونَ الكفرَ مكانَ الإيمانِ، وهو من سوءِ صنيعِهم.

ويقولُ النحويونَ إنّ هذا الفعلَ يتحوّلُ منْ هيئةٍ إلى هيئةٍ أخرى[7] أيْ يتحوّلُ ويتغيّرُ وينقلبُ، وفيهِ معنى الاشتراءِ، أيْ يشتري الكفرَ بالإيمانِ، كمنَ يدفعُ مالاً، وهو هنا الإيمانُ، ويأخذَ سلعةً، وهيَ هنا الكفرُ، وبئستِ السلعةُ هيَ.

6) ﴿ٱلْكُفْرَ﴾: مصدرُ كفرَ يكفرُ، وجذرُهُ اللغويّ (كفر) ولهُ أصلٌ واحدٌ "يدلُّ على معنى واحدٍ، وهو السترُ والتغطيةُ، يقالُ لمنْ غطّى درعَهُ بثوبٍ: قدْ كفرَ درعَهُ"[8]

(1) الراغب، المفردات: (رسل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة (قبل).
(3) الراغب، المفردات: (قبل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قبل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).
(6) الراغب، المفردات: (بدل).
(7) المبّرد، المقتضب: 1/78.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).

"ووصفُ اللّيلِ بالكافرِ لسترِه الأشخاصَ، والزّرّاعَ لسترِه البذرَ في الأرضِ"[1] ومعنى الكفرِ في الآيةِ "جُحُودُ الوحدانيّةِ أو الشّريعةِ أو النّبوّة"[2]؛ لأنّ الكافرَ غطّى على الحقّ والدِّينِ وسترَ عليه[3].

7) ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾: مصدرُ آمنَ يؤمنُ، وجذرُه من الهمزةِ والميمِ والنونِ، وهي تدلُّ على سكونِ القلبِ وتصديقِه[4] وأصلُ الأمنِ طمأنينةُ النَّفْسِ وزوالُ الخوفِ[5] وفعلُه: أمنَ.

أمّا آمنَ فلهُ وجهانِ[6].

أحدُهما: أنْ يكونَ متعديًا، تقولُ: آمنتُه إذا جعلتَ له الأمنَ والأمانَ، ومنه -في وجهٍ[7]: اسمُ اللهِ المؤمنِ.

والآخرُ: أنْ يكونَ لازمًا، ومعنى (آمنَ) على هذا: صارَ ذا أمنٍ.

والإيمانُ: التصديقُ باتّفاقِ أهلِ اللغةِ[8] ونازعَ في هذهِ الحقيقةِ اللغويةِ جماعةٌ[9]، والإيمانُ في الشرعِ يطلقُ إطلاقينِ[10]:

إطلاقًا عامًا تندرجُ فيه جميعُ أمورِ الدينِ العلميةِ والعمليةِ، فهو بهذا الاعتبارِ قولٌ وعملٌ واعتقادٌ.

وإطلاقًا خاصًا، والمرادُ به التصديقُ والإقرارُ بأصولِ الإيمانِ السِّتةِ المشهورةِ، الواردةِ في الحديثِ الطويلِ، وفيه: "أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالبَعْثِ الآخِرِ"[11].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(2) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(3) السمين، عمدة الحفّاظ: (كفر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(5) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(6) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(7) الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 31 - 32.
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: 15/368، وهذا الاتفاق إنما هو في الحقيقة اللغوية للإيمان، أما معناه في الشرع فليس هو معناه في اللغة، بل له في الشرع حقيقة أخرى أوضحتها الأدلة.
(9) ابن تيمية، الإيمان، ص: 101، وما بعدها.
(10) عبد الرحمن البراك، شرح العقيدة الطحاوية، ص: 293.
(11) رواه مسلم، حديث رقم: (9).

والإيمانِ في الآيةِ "مَعْنَاهُ التَّصْدِيق الَّذِي هُوَ نقيض الكفْر"[1].

8) ﴿ضَلَّ﴾: فعلٌ ماضٍ، ويسمّى مضعَّفَ الثلاثيّ، أصلُه (ضلل)، وهيَ أحرفُ جذرِه، والأصلُ في معناهُ "ضياعُ الشيءِ، وذهابُه في غيرِ حقّه"[2].

"والضّلالُ ضدّ الهدَى، وضلّ في الأَمرِ ضلالاً إِذَا لمْ يهتدِ لَهُ، وضلّ فِي الأَرْضِ ضلالاً إِذا لمْ يهتدِ للسّبيلِ"[3].

والمقصودُ في الآيةِ: "العدولُ عن الطريقِ المستقيمِ؛ ويضادّهُ الهدايةُ"[4].

9) ﴿سَوَآءَ﴾: اسمٌ على وزنِ (فَعَال)، جذرُه اللغويّ من (سوي)، والأصلُ في معناهُ أنْ يدلّ "على استقامةٍ واعتدالٍ بينَ شيئينِ، يقالُ: هذَا لا يساوِي كذا، أيْ: لا يعادلُه، وفلانٌ وفلانٌ على سويّةٍ من هذا الأمرِ، أيْ: سواءٌ"[5].

"وَسَوَاء الشَّيْء وَسطُه ... وَوضعتُ الشَّيْءَ في سَوَاءِ كمِي؛ أَيْ: في وَسطِه"[6] ويمكنُ أنْ يكونَ السّواءُ هو القصدُ؛ لأنّ ابنَ قتيبةَ فسّرَ اللّفظةَ في الآيةِ بقولِه: "سَوَاءَ السَّبِيلِ، أيْ: قصدَ الطريقِ ووسطِه"[7].

ويوصفُ المكانُ بالسواءِ كنايةً عنْ عدلِه وتوسطِه بينَ الفريقينِ، والمرادُ في الآيةِ أنّهمْ ضلّوا عن وسطِ الطريقِ، فإذا كانُوا كذلكَ فهمْ لغيرِه أضلّ.

10) ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾: اسمٌ على وزنِ (فَعِيل)، جذرُه اللغويّ من (سبل)، ولهُ أصلٌ واحدٌ "يدلّ على إرسالِ شيءٍ من علوّ إلى سفلٍ، وعلى امتدادِ شيءٍ ... والممتدُّ طولاً: السبيلُ، وهو الطريقُ؛ سمّيَ بذلكَ لامتدادِه"[8].

والسبيلُ "كلّ مأتيّ إِلَى الشَّيْءِ فهو سَبيلُه"[9] وقدْ وردَ كثيرًا في القرآنِ الكريمِ،

(1) الكفوي، الكليات، ص: 212.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلل).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (ضلل).
(4) الراغب، المفردات: (ضلل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (سوأ).
(7) ابن قتيبة، غريب القرآن: 141.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).
(9) الكفوي، الكليات، ص: 494.

والغالبُ في معانيهِ أنّهُ بمعنَى الطريقِ[1]؛ وهو يذكّرُ ويؤنّثُ، وجمعُه على السُّبلِ، والسبيلُ في الآيةِ بمعناهُ المجازيّ[2] أيّ طريقُ الهدايةِ والإيمانِ، وليسَ الطريقَ بمعناهُ الموضوعِ في لسانِ العربِ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تضمَّنتِ الآيةُ نصحًا وإرشادًا من الحقّ تباركَ وتعالَى إلى المسلمينَ أن يتّبعُوا الرسولَ ﷺ فيما يأمرُهم بهِ، وأنْ ينتهُوا عمّا ينهاهُم عنهُ، وأنْ لا يكونُوا كقومِ موسَى عليه السلام بسؤالاتِهم التي يطلبونَ فيهَا أمورًا فوقَ ما جاءَهم، ثمّ عقّبَ ذلكَ بأنْ أخبرَهم أنّ تركَ الآياتِ البيناتِ وطلبَ غيرِها تعنّتًا وعنادًا هو كمنْ يختارُ الكفرَ، ويتركُ الإيمانَ، ويستحبُّ العمَى على الهدَى، فيضلُّ عن طريقِ الحقِّ، ومَنْ ضلَّ عن وسطِه الواضحِ فهو لغيرِه أضلُّ وأعمَى.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

تضمينُ (أمْ) معنَى الإضرابِ والاستفهامِ:

فصاحةُ الانتقالِ من الخطابِ التقريريّ إلى الخطابِ التحذيريّ بـ (أمْ)

تحتملُ ﴿أَمْ﴾ الاتّصالَ والانقطاعَ، فإذا حملناهَا على الاتّصالِ؛ فلا بدّ من تقديرِ محذوفٍ معلومٍ من السياقِ، فكأنَّه قيلَ: أيُّ الأمرينِ من عدمِ العلمِ بمَا تقدَّمَ ذكرُه، أو العلْمِ بما تقدَّمَ مع اقتراحِ السؤالِ واقعٌ منكُم؟ والاستفهامُ حينئذٍ يكونُ للإنكارِ؛ بمعنَى: لا ينبغِي أنْ يكونَ شيءٌ منهمَا بتاتًا[3]، فهذا معنَى أنْ تكونَ ﴿أَمْ﴾ متصلةً.

ومعنَى الانقطاعِ هو الإضرابُ أيْ: "بلْ أتريدونَ، فهو استفهامٌ منقطعٌ عمّا قبلَه"[4]، والانقطاعُ أقوَى دلالةً من الاتصالِ، ومعنَى الكلامِ على الاحتمالينِ:

توصيةُ المسلمينَ بالثقةِ بالقرآنِ وبالرسولِ، وعدمِ الاستماعِ للطَّاعنينَ، وفي هذهِ

(1) السمين، عمدة الحفّاظ: (سبل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سبل).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/354.
(4) الواحديّ، الوسيط: 1/191.

التوصيةِ كمالُ المبالغةِ والبلاغةِ حتّى كأنّهم بصددِ الإرادةِ فنهُوا عنهَا، فضلًا عن السؤالِ، يعنِي: من شأنِ العاقلِ ألاّ يتصدّى لإرادةِ ذلكَ[1].

وتحتملُ أنْ تكونَ للعطفِ "على قولِه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ وتقديرُه: ألمْ تعلمُوا ذلكَ، أم لمْ تعلموُا فتسألُوا رسولَكم"[2]، وجعلَها بعضُ المفسرينَ استفهامًا فحسب، على نيَّةِ إسقاطِ الميمِ، أيْ: أتريدونَ[3].

ومعنَى الإضرابِ والاستفهامِ وجيهٌ حاضرٌ، فـ "إنَّ ﴿أَمْ﴾ هذهِ منقطعةٌ للإضرابِ عنْ عدمِ علمِهمْ بالسّابقِ إلى الاستفهامِ عنِ اقتراحهمْ، فهيَ تتضمّنُ الإضرابَ والاستفهامَ معًا"[4].

ومعنَى الاستفهامِ متوجّهٌ إلى الإرادةِ؛ لأنّه أردفَ الاستفهامَ بالفعلِ (تريدونَ) وهو أسلوبٌ قرآنيّ تعريضيّ بليغٌ؛ لأنّه إذَا "كانَ الاستنكارُ للإرادةِ، فهو للسؤالِ أشدّ؛ لأنّهُ إذا استنكرتَ ذاتَ الإرادةِ، فالأوْلى يكونُ للفعلِ"[5] والإرادةُ تسبقُ الفعلَ؛ فعُلمَ أنّه أرادَ أنْ يحذّرهُم من ذلكَ ابتداءً.

فائدةُ استعمالِ المصدرِ المؤوَّل:

تبرئةُ المؤمنينَ من تهمةِ السّؤالِ في الحاضرِ، وتحذيرُهُم في المستقبلِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالمصدرِ المؤوَّلِ، لا بالمصدرِ الصريحِ لمفعولِ ﴿تُرِيدُونَ﴾؛ وذلكَ لبيانِ أنَّ المُخاطَبينَ لم يسألوهُ بعدُ، وإنَّما هوَ على التوقّعِ مستقبلاً، بدلالةِ ﴿أَن﴾ المصدريةِ المخلّصةِ للاستقبالِ؛ ليدفعَ عنهم مغبَّةَ الوقوعِ في الزَّمنِ الحاضرِ، ويحذّرَهم من إيقاعِه في المستقبلِ.

إيثارُ نعتِ الرّسالةِ على النّبوّةِ:

التَّحذيرُ في السّؤالِ هو عمَّا يتعلّق بالقرآنِ، لا بشخصِ الرَّسولِ

في قولِه تعالَى: ﴿رَسُولَكُمْ﴾ آثرتِ الآيةُ الإتيانَ بنعتِ الرِّسالةِ، فلمْ يُقلْ: (نبيكم)؛ وذلكَ لأنّ الاقتراحَ المحذَّرَ منه هو فيما يتعلَّقُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/354.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/289.
(3) البغويّ، معالم التنزيل: 1/135.
(4) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 1/343.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/358.

بالرِّسالةِ، أيْ: القرآن، وهو ما يعنِي أنَّ سؤالَ قومِ موسَى لهُ عليهِ الصَّلاةُ والسّلامُ كانَ فيما يتعلّقُ برسالتِه لا بشخصِه، ولا بذاتِ نبوَّتِه، وهو ما يدلُّ على أثرِ اختيارِ الألفاظِ في بيانِ المعاني.

نكتةُ إضافةِ رسول إلى ضميرِ المخاطبين:

التَّحذيرُ من مشابهةِ منهجِ بني إسرائيلَ في سؤالِهم لرسلِهم

أُضيفَ رسولٌ في قولِه تعالَى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ﴾ إلى ضميرِ المخاطَبينَ؛ لزيادةِ تبشيعِ فعلِ السّؤالِ؛ فهو رسولُكم الذي تعرفونَه في حرصِه عليكم، وحبِّه لكم، ورحمتِه بكم؛ فهو يخاطبُهم مستنكرًا صُدُورَ سؤالٍ يُشابِه سؤالَ بني إسرائيلَ موسَى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّهُ سؤالٌ لمْ يقمْ على الحقِّ، بلْ على الهوَى واتِّباعِ غوايةِ النَّفسِ، فالاستنكارُ ليسَ لذاتِ السُّؤالِ بل لمشابهةِ السُّؤالِ للسؤالِ، وهذا من بلاغةِ التَّشبيهِ القرآنيِّ في إبرازِ المعاني القرآنيَّةِ، ففيهِ تحذيرٌ في مشابهةِ منهجِ بني إسرائيلَ في التَّعاملِ مع رسولِ اللّهِ ﷺ.

بلاغةُ القرآنِ في استعمالِ الحروفِ:

التَّحذيرُ لا يقتصرُ على ذاتِ السّؤالِ بل يتعدَّاهُ إلى المنهجِ

استعملتِ الآيةُ القرآنيّةُ حرفَ ﴿مَا﴾ دونَ المصدرِ، فلمْ يُقل: "كسؤالِ"، ودونَ الاسمِ الموصولِ؛ فلمْ يُقل: "كالذي سُئلَ"، وكلاهُما محتملٌ؛ وهيَ إلى المصدريةِ أقربُ، ولمعناها أوقعُ؛ للذّهابِ في معنى العمومِ؛ لأنَّ المصدرَ يوحِي بنوعِ تحديدٍ للمسؤولِ، والاسمُ الموصولُ أشدُّ تحديدًا، فأُوثرَ حرفُ ﴿مَا﴾ ليكونَ الأمرُ عامًّا؛ ولينصبَّ التَّشبيهُ على المنهجِ لا على سؤالٍ بذاتِه، فأيُّ سؤالٍ من شأنِه أنْ يحومَ حولَ المحذورِ فمنهيٌّ عنهُ، وهذا أبلغُ في النَّهيِ من التَّعبيرِ بالمصدرِ أو الموصولِ، وهي إلى المصدريّةِ أدنَى؛ "لأنَّ المشبّهَ ﴿أَن تَسْـَٔلُواْ﴾ وهو مصدر، فالظَّاهرُ أنَّ المشبَّهَ به كذلكَ، وقُبْحُ السّؤالِ إنَّما هوَ لقبحِ المسؤولِ عنهُ، بل قد يكونُ السّؤالُ نفسهُ قبيحًا في بعضِ الحالاتِ، معَ أنَّ المصدريّةَ لا تحتاجُ إلى تقديرِ رابطٍ؛ فهو أولَى"[1].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/355.

أثرُ الصّيغةِ في بيانِ المعاني:

التَّشنيعُ على السَّائلينَ بصونِ المقامِ من ذكرِهم، زيادةً في التَّحذيرِ من صنيعِهم

عبَّرتِ الآيةُ عن السّؤالِ بصيغةِ الفعلِ المبنيِّ للمفعولِ ﴿سُئِلَ﴾، "ولمْ يقلْ سبحانَه: كمَا سألَ أمَّةُ موسَى عليه السلام؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَن سألَ ذلكَ يستحقُّ أنْ يُصانَ اللسانُ عن ذكرِه"[1]، ثمّ إنّ تمثيلَ الحقّ تباركَ وتعالَى سؤالَ هؤلاءِ بسؤالِ أولئكَ لموسَى عليه السلام، فيه تبكيتٌ وتقريعٌ لهم؛ فقولُه: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾ أيْ: لا تفعلُوا هذا الفعلَ، وفي ذلكَ تشنيعٌ لحالِ السَّائلينَ، بما يزيدُ من شدَّةِ التَّحذيرِ من صنيعِهم.

فائدةُ ذكرِ الظَّرفِ:

زيادةُ التَّشنيعِ، وإطلاقُ عنانِ الفكرِ في استيضاحِ المقصودِ

لسائلٍ أنْ يسألَ عن السِّرِّ في ذكرِ ﴿قَبْلُ﴾؛ فلمْ يكتفِ النَّظمُ بقولِه: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾، والظَّرفُ مقصودٌ به زمنٌ معيَّنٌ معلومٌ، غيرُ محدَّدٍ بإضافةٍ[2]، وللمتلقِّي أنْ يقدِّرَ ألفاظًا متعدِّدةً تدلُّ على مجموعةٍ من المعاني، كأنْ يقدِّرَ: من قبلِ رسولِكم، أو من قبلِ نزولِ كتابِكم، أو من قبلِ ضلالِهم وكفرِهم، فالكلامُ وإن كانَ ظاهرُه الإطنابَ فجوهرُه الإيجازَ، فقولُه ﴿مِن قَبْلُ﴾ من بابِ الإطنابِ الذي يُرادُ منه التّشنيعُ عليهم، "ورُبّ كلامٍ يكونُ الإطنابُ فيه أبلغَ من الإيجازِ، وتصيرُ البساطةُ له كالعلَمِ والطرازِ)[3] ففائدةُ الإطنابِ هنا زيادةُ التشنيعِ عليهم؛ لأنّ غرضَهم من سؤالاتِهم التعنّتُ واللّجاجُ، وليسَ الاستيضاحَ وطلبَ الاحتجاجِ، ويعزِّزُه قولُ رسولِ اللّهِ ﷺ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»[4]، إن لم يكنْ قولُه أُخِذَ من معينِ الآيةِ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/354.
(2) فاضل السامرائّي، معاني النحو: 3/139-140.
(3) العلوي، الطراز: 2/96.
(4) البخاري، الجامع المسند الصحيح، حديث رقم: (7288).

وجهُ الاتّصالِ بينَ الجُملِ:

اتِّحادُ الجملتينِ في تعيينِ السببِ والنَّتيجةِ في حكمٍ واحدٍ

إمَّا أنْ نحملَ الواوَ في قولِه تعالَى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ على العطفِ أو الاستئنافِ، فمعنَاها على العطفِ: الاشتراكُ بينَ أسئلةِ التَّعنتِ واللّجاجةِ، وتبديلُ الكفرِ بالإيمانِ في حكمٍ واحدٍ، وهو ما يُعيِّن أنَّ الأسئلةَ في مضمونِها تقودُ إلى الكفرِ، وما قادَ إلى الكفرِ فهو كفرٌ؛ فهيَ لتأكيدِ النَّهيِ عن الاقتراحِ المفهومِ من قولِه: ﴿أَمۡ تُرِيدُونَ﴾، فهيَ تذييلٌ له باعتبارِ أنَّ المُقترحينَ الشَّاكّينَ من جملةِ الضَّالّينَ الطّريقَ المستقيمَ المتبدِّلين[1].

ومعناها على الاستئنافِ النّحويّ: إنشاءُ معنى جديدٍ؛ فإنّ تبديلَ الكفرِ بالإيمانِ مرتعُه وخيمٌ، وثمرتُه أن يتيهَ المرءُ الطَّريقَ الصَّحيحَ، وهذهِ حقيقةٌ مُستتبّةٌ؛ لذلكَ استأنفَ بها، وهي تصلحُ قاعدةً عامةً.

ومعنى العطفِ والاستئنافِ متدانيانِ، وإنْ كانَ من تقويةٍ فهي للعطفِ، إذْ به يظهرُ انسجامُ الكلامِ وائتلافُه؛ فهو يجعلُ مضمونَ الجملةِ شديدَ الارتباطِ بالسَّابقةِ، ويعيِّنُ السببَ والنتيجةَ بتنزيلِهما في منزلةِ الحكمِ الواحدِ، والاستئنافُ وإنْ كانَ قويًّا، إلَّا أنَّ حملَها على العطفِ أشدُّ قوَّةً، ذلكَ أنَّ العطفَ يحقِّق معنى الاستئنافِ وزيادةً، بخلافِ الاستئنافِ؛ فيقتصرُ على معنًى واحدٍ، وما تعدَّدتْ معانيهِ، مقدَّمٌ على ما انفردَ بأحدِها.

بلاغةُ الطِّباقِ:

بيانُ قبحِ الكفرِ في جانبِ جمالِ الإيمانِ

بينَ الكفرِ والإيمانِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ طباقُ التضادِّ، فهما وإنْ كانَا على طرفيْ نقيضٍ، إلّا أنّ وجودَ أحدِهما بجانبِ الآخرِ في التركيبِ اللغويّ مما يخلعُ عليه نصاعةً بلاغيةً واضحةً، وبضدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ، وفائدتُه تكمنُ في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/355.

بيانِ قبحِ الكفرِ في جانبِ جمالِ الإيمانِ، وبيانُ شدَّة تعاسةِ الكافرِ وخسارتِه في إيثارِه الكفرَ على الإيمانِ.

معنى الباء في قوله ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ﴾:

تقاربُ معنيي البدلِ والمقابلةِ

تحتملُ الباءُ في قولِه تعالَى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ معنيين؛ وهما: البدلُ والمقابلةُ، أمّا البدلُ فهو الذي يحسُنُ وضعُ لفظةِ (بدل) موضعَها؛ فالتقديرُ: (ومَن يتبدّلِ الكفرَ بدلَ الإيمانِ)، وأمّا المقابلةُ؛ وتسمّى العوضُ، فهيَ "الباءُ الداخلةُ على الأثمانِ والأعواضِ، نحو اشتريتُ الفرسَ بألفٍ"[1]، وقدْ جعلَ المفسرونَ معنَى التبدّلِ: الشِّراء، وهو ممّا يحسُنُ تفسيرُه هنا، والبدلُ والمقابلةُ معنيانِ متقاربانِ.

سرُّ التعبيرِ بـ: ﴿سَوَآءَ﴾:

التوبيخُ والتشنيع لمن يبيع إيمانه، وهو في وسط الطريق

قولُه تعالى: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ مفعولاً بهِ للضلالِ الصادرِ ممّن يتبدّلُ الكفرَ بالإيمانِ، ويحتملُ أن يكونَ مفعولاً فيه، أي: أنْ يكونَ ظرفًا منصوبًا، و"سواءَ ظرفٌ بمعنَى وسطِ السّبيلِ، وأعدلِه، والسّبيلُ يذكَّرُ ويؤنّثُ"[2] وقدْ أضيفَ إلى السبيلِ، وهو "الطريقُ الذي فيهِ سهولةٌ"[3] ولمّا كانَ هذا وصفَ الطريقِ، عُلمَ أنّ في هذهِ الآيةِ توبيخًا لمَن صدرَ منه ذلكَ أشدّ التوبيخِ والتشنيعِ لمَن يبيعُ إيمانَه، ويخطئُ طريقًا واضحًا فيه تيسيرٌ، بلْ ويخطئُ وسطَ الطريقِ، وما كانَ منهُ سهلاً يسيرًا، فكيفَ بمَنْ كانتْ سبيلُه شاقّة عسيرةً غيرَ معبّدةً، وهو يسيرُ على أطرافِها وأحرفِها، يخافُ أنْ تتخطّفَه النُّوبُ والحادثاتُ.

(1) المراديّ، الجنى الداني، ص: 41.
(2) العُكبريّ، التبيان: 1/104.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 3/24.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني، سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 2 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-53-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 2 : سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-53-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984852 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»